الشعر في الأندلس

بقلم الأستاذ الدكتور

الطاهر أحمد مكي

obeikan

لا تكاد توجد آثار لحياة أدبية نشطة في الأندلس خلال السنوات الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي، ولم يكن للشعب الأسباني نفسه الذي وجده المسلمون على أرض الأندلس ثقافة ذات أثر تدل على حياته الفكرية قبل أن يعتنق الإسلام طائعًا مختارًا، ويمضى **عصر الولاة** بأكمله (٧١٠ – ٧٥٥م)، دون أن نقع على شاعر ذي خطر، أو ناثر ذي أهمية، لقد شغلهم ما أحاط بهم من صراعات ونزاعات واضطرابات وحروب لم تنته عن الدرس والفكر والإبداع، وكان جل الداخلين إلى الأندلس، في البدء، جنودًا يشغلهم الجهاد، وتثبيت دعائم الدولة أكثر من أي شيء آخر، ولكن ظروف البيئة الجديدة فرضت نفسها، ودفعت المرهفين إحساسًا إلى قول الشعر، حنينًا إلى أوطانهم وذكرياتهم البعيدة، أو وصفًا وتغنيًا بمهابطهم الجديدة التي استقروا فيها، ولكن استجابتهم لهذه الدوافع كانت متواضعة فيما يبدو، إذ لا نكاد نقع لهم على قصائد كاملة، وإنما هي أبيات شوارد، أو مقطعات قصيرة متفرقة، تجيء عفو الخاطر، ضاع معظمها، وما وصلنا منها لا يعين على رسم صورة واضحة للحياة الأدبية في تلك الفترة.

أبرز ما يميز شعر هذه المرحلة أنه لم يكن بمستوى نظيره في المشرق، وخلا من أي ملمح يجعل منه شعرًا أندلسيًّا، فقد حافظ على خصائص الشعر المشرقي بدقة، ألفاظًا وأسلوبًا ومعاني وأخيلة وأغراضًا. وهو أمر بدهي؛ لأن كل شعراء هذه المرحلة وافدون، وما روى لهم من أبيات، فإنما لشرف قائليها ومنزلتهم لا لجودة الأبيات أو ارتفاع أسلوبها.

بوصول **عبد الرحمن الداخل** إلى الأندلس، وقيام الدولة الأموية ١٣٨هـ – ٧٥٥م، أتيحت للأندلسيين الظروف المواتية لكي يبدعوا في شتى المجالات، وأصبح الشعر مركز الثقل في الحياة الأندلسية، أحبه الأندلسيون مهما كانت طبقتهم، ويقول المستشرق الفرنسي **هنرى بيريس** : "يمكن القول أنهم ولدوا جميعًا ينظمون الشعر، أو على الأقل يفتنون بالجمال الخفي الذي ينساب عبر أبياته المنغومة"،

العواصم الثقافية العربية وحركة الشعر – ٢٤٠

ويقول المؤرخ الأندلسي **ابن بسام** في كتابه الذخيرة : "لا يكاد بلد يخلو منها [أي الأندلس] من كاتب ماهر وشاعر قاهر"، ويذكر **القزويني** (ت ٦٨٢هـ = ١٢٨٣م) وهو جغرافي مشرقي زار الأندلس في كتابه آثار البلاد: إن أي فلاح يحرث بأثوار في شلب، يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من المعاني".

أحب الأندلسيون الشعر مبدعين ومتلقين، مهما كان مستواهم الاجتماعي، ممن أتاحت لهم مكانتهم في المجتمع أو مركزهم المالي، أن يدرسوا الشعر في سن الصبا والمراهقة، من الأمراء والأعيان والقضاة والقواد، ومن أولئك الفنانين الأشد بساطة في الحياة من عامة الشعب، الأكثر حرماناً من الثقافة بمعناها الدقيق، ونلتقي في كل مكان من الأندلس بشعراء يجهلون القراءة والكتابة، إلى جوار كوكبة عريضة من الشعراء المثقفين، وكان **ابن عمار**، وهو من أسرة شديدة التواضع يدرك الفائدة التي تعود على الفنان من مخالطة العامة الذين يكدون من أجل لقمة العيش، وكثيرًا ما كان يرحل – قبل أن يرتبط بالمعتمد – طلبًا لما يصدر من أرباب المهن والحرف من نتاج شعري، ولم يكونوا يأنفون، وجهدهم موزع بين الشعر وعملهم، أن ينظموا الأبيات في موضوعات مألوفة لهم، وقد أدرك **ابن عمار**، واعيًا ما يمكن أن يكسبه من صور جديدة، ومن تشبيهات دقيقة يلتقطها من الواقع، في ألفاظ عذبة صحيحة، حين يتردد على هذه البيئات، وإليه يرجع الفضل في اكتشاف **ابن جامع**، وكان صبّاغًا في بطليوس، **ويحيي**، وكان جزّارًا في سرقسطة، **وأبى تمام غالب بن رباح**، وكان حجّامًا في قلعة رباح، واشتهر بأبياته الواقعية، المنفرة أحيانًا، كأن يصف القروح المغطاة بالذباب، أو الأحشاء تلتهمها الطيور الجارحة، وما أكثر الشعراء المجيدين الذين تدل ألقابهم على مهنهم، أو المهن التي كان يحترفها آباؤهم، كابن اللبّانة، ومهجة بنت التيّاني، وغيرهم كثير.

وتعد إضافة الفلاحين إلى الشعر هي الأكثر أهمية، فالحياة في الحقول ليست دائمًا عملاً متصلاً، إنها أيضًا تدع للأحلام مكانًا، ويمكن القول: إن أعمق الشعر ذاتية هو ما تفجر من رجال ونساء التصقوا بالأرض الطيبة والطبيعة عن قرب، وهم يصورونها لنا بدقة، وتنعكس المشاهد في أبياتهم خشنة أو رقيقة، وهؤلاء الشعراء هم الذين انغمسوا فيما بعد في حياة المدن المرفهة، وعبروا عن

أقوى الأفكار في أحلى الصور نضارة، وأزهاها لونًا، وهم الذين أضفوا على الشعر الأندلسي هذه الظلال الريفية، أو الرعوية **Pastorale** إن شئت، ويرى **هنري بيريس** "أنها تضارع أروع ما كان يكتب في اليونان أو روما، من أدب صادق في نطاق هذا الجنس الأدبي من الأدب الزراعي".

ولقد أحس **ابن عمار** بعبقريته تتفتح فيما حول شلب من حقول، ومثله **ابن شرف** في قرية برجه، أما **ابن مُقانا**، وهو من قرية القبذاق، قرب شنترة في البرتغال، فقد اجتاحه الحنين إلى قريته في أخريات حياته، فعاد إلى حقوله وزراعته.

وكانت الطبقات العليا تتذوق الشعر وتنشده، وتجلى ذلك واضحًا في أمراء بني أمية، لقد وجد **مروان الطليق**، وهو أمير أموى أندلسي مملكته الحقيقية في الشعر، شأن **ابن المعتز** بين بني العباس في المشرق، يقول في قصيدته القافية، وهي طويلة وذاعت شهرتها :

شرفي نفسي، وحَلْيي أدبي وحُسامي مقْولي عند اللِّقا
جدّيَ الناصر للدين الذي فرّقت كفّاه عنه الفرقا
أشرفُ الأشراف نفسًا وأبًا حين يعلو وأعلى مرتقى
أنا أكسو ما غفا من مجدهم بِحُلَى رونقِ شعري رونقا

وكان **الحاجب المظفّر** بن المنصور بن أبى عامر يعجب كثيرًا بالأبيات التي تصف الزهور، ويقترح على شعرائه في بعض أوقات الربيع قطعًا نوّارية عن الحدائق والبراري، ويحب أن تغنيها له قيانه .

كان الشعر الأندلسي خلال عصر الإمارة صدى خافتًا لما كان يتردد في المشرق من شعر، ونمَّي هذه التبعية كثرة الذاهبين إلى المشرق طلبًا للعلم، وكثرة الوافدين على الأندلس من العلماء المشارقة وما يحملونه من ضروب العلم والفن والحضارة، وبلغ هذا أوجه مع قدوم **زرياب** الموسيقيّ، فقد حمل معه فيضًا من الأنغام المشرقية، تأصلت وأثرت في الشعر العربي نفسه، وأصبحت أساسًا للموسيقى الأندلسية فيما بعد .

مع قيام الخلافة الأندلسية على يد **عبد الرحمن الناصر** عام ٣١٧هـ-٩٢٩م، بلغ الشعر الأندلسي سمته الجمالي كاملاً، ووجدنا في طليعة شعرائه **ابن عبد ربه**، وبهر القلوب بمدائحه، ولكنه اشتهر بعقده الفريد أكثر مما اشتهر بشعره، **وابن هانئ**. وكان داعية سياسيًا للفاطميين، وأعطى أعظم نتاجه خارج الأندلس، فقد لحق بالمعز لدين الله الفاطمي في رحلته إلى مصر، ولقي حتفه في ظروف مأسوية غامضة وهو في الطريق قبل أن يبلغ الحدود المصرية، وكان **المعرّي** يشبه شعره بأنه "رحى تطحن قروناً"، **وابن درّاج القسطلي** وكان شاعرًا عسير الفهم، وآخرون كثيرون أورد **ابن حزم** أسماءهم في رسالته عن فضائل أهل الأندلس.

* * * * *

مع نهاية الربع الأول من القرن الحادي عشر الميلادي أفل نجم بني أمية، أتى لهيب "الفتنة" على دولتهم، وتهاوت مكانة قرطبة النبيلة في السياسة، وفي الأدب أيضًا، وتناثرت الدولة الواحدة إلى بلاطات عديدة صغيرة، في كل منها أمير لا يكاد سلطانه يتخطى حدود بلده، وهن أمرهم، وأضعفهم الترف والبذخ، وعُرفوا باسم "**ملوك الطوائف**"، وكانت دويلاتهم أشبه بجمهوريات إيطالية في ثياب شرقية، وساد عصرهم روح من البذخ المسرف، والإجرام السافر الذي لا يتورع عن شيء من المطامع والنزوات إلى الخناجر والسموم.

وهو عصر ازدهر فيه الشعر الأندلسي كما لم يكن كذلك يومًا، فقد تنافس الأمراء في أن يجعلوا من عواصمهم مراكز ثقافة وفن، ومهابط حياة اجتماعية راقية، وأن يجذبوا إلى بلاطاتهم كبار الشعراء، فاشتد الطلب على هؤلاء، ومضوا يقطعون الأندلس طولاً وعرضًا، ينتجعون قصور الأمراء، حيث يظفرون بالمأوى والصلات، ويحضرون مجالس الحكام، وتدرج أسماؤهم في سجلات الدواوين، وتقرر لهم الرواتب، وتُخلع عليهم الألقاب، ورب قصيدة أو مقطوعة تبلغ بصاحبها رتبة الوزارة.

وكان كبار القوم من أمراء ووزراء وسفراء لا يتراسلون إلا شعرًا، يتهادون رقاعًا صغيرة تحمل الدعوات والاعتذارات والأهاجي، أو يرفقونها بهداياهم، أو يسجلون فيها لمحات من حياتهم منظومة شعرًا، يشبهون فيها أنفسهم بالنجوم والزهور، حتى أصبحت حياتهم وما يدور فيها شعرًا خالصًا.

والحق أن جانبًا كبيرًا من هذا الشعر متكلف ولكنه يضم بين الحين والحين لمحات تصور أخلد العواطف الإنسانية.

كان لكل أمير ميزة اختص بها، عرف **المتوكل** صاحب بِطْلَيوس بالعلم الغزير، **وابن ذي النون** أمير طليطلة بالبذخ البالغ، وفاق **ابن رزين** صاحب السهلة أنداده في الموسيقى، واختص المقتدر أمير سرقسطة بالفلسفة والعلوم، وبز **ابن طاهر** صاحب مرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع، أما الشعر فكان مشتركًا بينهم جميعًا، يلقى منهم كل رعاية، ولكن عناية **بنى عباد** أصحاب إشبيلية به كانت أعظم وأشمل.

فإذا أردنا أن نقدم شاعر ذلك العصر في كلا جانبيه، مبتهجًا سعيدًا أو تعسًا شقيًا، فليس أوفق في ذلك من **المعتمد بن عباد** (ت ١٠٩١م)، كان أبوه المعتضد وأبناؤه جميعًا، خاصة **الراضي** حاكم رندة، شعراء كلهم، ولكن **المعتمد** بزهم جميعًا وفاق كل معاصريه، كان الشعر نفسه من وجوه ثلاثة :

- ينظم شعرًا رائعًا مؤثرًا يثير الإعجاب.
- وكانت حياته نفسها قصيدة ذات أوجه متعددة.
- وكان راعي الشعراء في الأندلس، والمغرب الإسلامي كله إذا شئت، وإلى بلاطه لجأ شعراء إفريقية وصقلية، عندما غزا النورمان بلادهم واستولوا على بعضها وتهددوا الباقي.

كانت حياة **المعتمد** ملحمة مأساوية، وهو يحتل في تاريخ الشعر الأندلسي مكانة بارزة، بدأ حياته عاملاً لأبيه على ولية **Huelva**، وعلى شلب من بعدها، وحاكمًا على أقليم الجوف كله (تبع البرتغال الآن)، وفي هذه الأقاليم الفياضة بالفتنة والجمال بدأت مواهبه الشعرية تتجلى، وفيها التقي **ابن عمار**، شابًا عربي الأرومة، فقير

المنبت، درس الأدب في شلب وقرطبة، ومضى يقطع ربوع الأندلس طولاً وعرضًا، في ملابس مستنكرة بعض الشيء يمدح من يمنحه، ولم يقصر مديحه على الملوك والأمراء كما جرت عادة كبار الشعراء إذ ذاك، ولم يلبث أن اتصل بالمعتمد، ولما كانا من عشاق المسرات والمغامرات والشعر الجميل، توطدت بينهما أسباب المودة، واندفع **المعتمد** في صداقـــة ابن عمار اندفاعًا شديدًا صادقًا، ولكن **ابن عمار** لم يكن كصاحبه الأمير يؤمن بدوام الرخاء والهناء، وإنما كان رجلاً ذاق مرارة الخيبة التي تخلفها قسوة الحياة، والكفاح الدائم في سبيل تأمين لقمة العيش، وفاض داخله بالريب والشكوك، وكسب من حياته المجهدة خبرة بطبائع البشر، فكانت الهواجس تطوف بنفسه، وتلقى في روعه أنه سوف يفقد ودّ المعتمد يومًا، مع أنه مدحه بقصيدة تعد من روائع الشعر العربي، ومطلعها :

أدر الزجاجةَ فالنسيمُ قـــد انبرى والنجم قد صرف العنانَ عن السُّرى
والصبحُ قـــد أهـــدى لنا كافـــوره لما اســـترد الليـــلُ مـــنا العنـــبرا

قضَى **ابن عمار** في إشبيلية أول الأمر زمنًا رخيًا، واشتغل به **المعتمد** عن أمور الدولة . وأنكر **المعتضد** ذلك على ابنه، وأراد أن يصرف ابن عمار عنه فنفاه من إشبيلية فتوجه إلى سرقسطة وأقام بها إلى أن مات المعتضد، وتولى ابنه المعتمد الإمارة، فاستقدم ابن عمار وخيّره في ولاية يتولاها فاختار ولاية شلب، وفي إحدى قراها مسقط رأسه، فأجابه المعتمد إلى ما طلب، والألم يملأ جوانحه لفراقه، ألم حرك شاعريته، فقال أبياتًا يذكر فيها أيام شبابه السعيدة، حين كان واليًا عليها :

ألا حـــيِّ أوطاني بشـــلبٍ أبا بكر وسَلْهُنَّ : هل عهدُ الوصالِ كما أدري؟
وسلم على قصر "الشراجيب" عن فتى له أبـــدا شـــوق إلى ذلك القـــصر

في بلاط **المعتمد** تجلت شخصية كان لها أبعد الأثر في نتاجه الشعري : **اعتماد الرميكية**، جارية تاجر من أثرياء إشبيلية يدعى "رُميك" صادفها **المعتمد** في إحدى نزهاته مع **ابن عمار** على شاطئ الوادي الكبير، وأعجب بها لأنها أجازت على البديهة شطر بيت عجز ابن عمار عن إتمامه :

قال المعتمد لصاحبه: أجز :

نســـج الريـــحُ على المـــاء زَرَدْ

وتأخر ابن عمار في الرد (ربما قاصدًا)، وإذا بفتاة على شاطئ النهر تكمل البيت على البديهة :

أي درعٍ لـــقـــتـــالٍ لـــو جَـــمـــد

وتقدم المعتمد فاشتراها من سيدها، ثم تزوجها، وظلت معه حتى آخر حياته، ورزق منها أحب أبنائه إليه.

كان حديث **اعتماد** يفيض عذوبة، طلعتها مسعدة، حاضرة الجواب، بارعة الردود، فيها رقة غالبة ومرح لطيف، تشوبه سذاجة طفلة، مسرفة في دلالها ونزواتها إلى حد كان يضيق معه صبر **المعتمد** أحيانًا، وتعرض لنا كتب التاريخ صورًا متعددة لهذا الدلال، وبلغت حدًّا واسعًا من الشيوع فيما يبدو، حتى أن كتب الحكايات الإسبانية التى أُلفت بعد ذلك بقرن من الزمان أوردت بعضًا منها، فنلتقي بها في كتاب "الكوند لوكانور" الذي ألفه الأمير **خوان منويل** (١٢٨٢ - ١٣٤٩م)، وهو أول أديب إسباني صاحب أسلوب نثري، وكان يعرف العربية ويقرأ كتبها، وترجم الكتاب إلى العربية صديقنا الشاعر الكبير أبو همام، عبد اللطيف عبد الحليم، وأثار هذا الدلال فقهاء إشبيلية، فرموها بأنها ورطت **المعتمد** في الخلاعة والمجاهرة والاستهتار مما أثار العامة عليه، ولكنها لم تلق بالاً لذلك، ومضى **المعتمد** على حاله معها، يدللها ويقول فيها الشعر عذبًا رقيقًا.

لقد افتتح **المعتمد** المدائن، ومات نفر من أبنائه بين سمعه وبصره أثناء حروبه، وقتل بيديه **ابن عمار** أقرب أصحابه إلى نفسه عقابًا له على خيانته، وعندما ثقلت عليه وطأة النصاري في الشمال استنجد بالمرابطين في المغرب، وسار المرابطون وملوك الطوائف، وفي مقدمتهم **المعتمد** إلى المعركة، على رأس جيشه، واثقًا من النصر ينشد :

لابـــد مـــن فـــرح قـــريـــب يـــأتـــيك بالـــعجـــب الـــعجـــيب
غـــزوٌ عـــلـــيـــك مـــبـــاركٌ ســـيـــعـــود بالـــفـتـــح الـــقـريـــب

لله سَعْدُك إنه نُكسٌ على أهل الصليب
لابد من يوم يكو ن أخاً له يوم القليب[1]

انتصر المسلمون في معركة الزلاقة، وجرت عام ١٠٨٦م، وفيها قاتل المعتمد قتالاً محمومًا، وأبدى بطولة قليلة النظير، وكانت شجاعته وصموده عاملاً حاسمًا في تحقيق النصر، ولما رجع **المعتمد** إلى إشبيليه جلس للناس، وهُنِّئ بالفتح، وقرأت القراء، وقام على رأسه الشعراء فأنشدوه. قال **عبد الجليل بن وهبون** الشاعر : حضرت ذلك اليوم، وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه، فقرأ القارئ : ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله**﴾ فقلت : "بُعدًا لي ولشعري، والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به"!

لكن أمير المرابطين لأسباب سياسية ارتآها، وليس هنا موضع مناقشتها، قرر أن يزيح أمراء الطوائف عن عروشهم، وبدأ بالمعتمد لأنه أعظمهم وأقواهم، ودافع المعتمد وبنوه عن ملكه، وترامى على الموت بنفسه غير أن ذلك لم يجده شيئًا، وأدرك واعيًا أن دولتهم انهارت، وملكهم تلاشي، وبدأ شاعرًا يرثى مجدًا ضائعًا، في أبيات شرقت وغربت؛ لأنها تصوّر المثل الأعلى في حياة العربي، أميرًا على عرش، أو راعيًا وراء قطيع : السم ألذ مذاقًا من الخضوع، والشرف الرفيع لا يسلب، لم يتخلف عن القتال، ولا ضن بنفسه عن الاستشهاد، ولئن عاش بعد المعركة الخاسرة فلأن له عمرًا لم ينقض، فما سار يومًا إلى معركة، وأمّل أن يعود منها حيًّا، تلك أخلاقه، وأخلاق أهله من قبل :

قالوا : الخضوعُ سياسة فليَبْدُ منك لهم خضوعْ
وألذ من طعم الخضو ع على فمي السمُّ النقيع
إن تستلي عني الدُنا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلمِ القلب الضلوع

---

[1] يوم القليب : معركة بدر.

لـم أُستلـب شـرف الـطبـا ع أَيُسـلبُ الشـرفُ الـرفيـع
قـد رُمـتُ يـوم نـزالـهم أن لا تـحَـصِّـنـنـي الـدورع
وبـرزتُ ليس سـوى الـقميـ ـص على الحشـا شيء دفـوعْ
أجـلي تـأخـر لـم يـكـن بـهـواي ذُلِّـي والخـضـوع
مـا سـرت قـط إلـى القتـا لِ وكـان من أمـلي الـرجـوع
شِـيَـمُ الأُلـي أنـا مـنـهـمُ والأصـل تتـبـعـه الـفـروع

جاءت قصائد **المعتمد** في رثاء دولته وبكاء واقعه كثيرة وفريدة، ولم يحدث قبله أن فاضت ينابيع الشعر في أعماق أمير فصور لنا مأساته وأحزانه وآلامه وتأسّيه، وصاغ التجارب موحية مثيرة من واقعه ومأسيه، كما صنع المعتمد، في نبرة صادقة، ومعاناة حقيقة وإيقاع حزين، ولكنه في كل الحالات ينبض نبلاً، وينضح بكبرياء جميل :

قـيدي! أمـا تعـلمـني مسلـمًا أَبيـت أن تشـفق أو تـرحمـا
دمـي شـرابٌ لك، واللـحم قـد أكـلـته، لا تهـشم الأعظـما
ارحـم طفـيلاً طائـشًا لُـبُّـه لـم يخش أن يأتيك مُسترحمـا
وارحـم أخـيّات لـه مـثلـه جـرّعتـهنّ السـم والعـلقمـا
منـهن مـن يفـهم شيئًا فـقـد خِفـن علـيه، للبُكـاءِ، العمـى
والـغـرُّ لا يـفـهم شـيـئًا فمـا يـفـتـح إلا للـرضـاع فـمـا

إنها صورة بالغة الحزن، جعل منها التشخيص شيئًا نحسه ونشعر به، ويتسرب إلى أعماقنا خفيًّا فيجسد التجربة أمامنا حية، ويستل الدموع من أعيننا غزيرة، كأننا نرى المشهد أمامنا.

وقد أورثته قسوة المحنة، وهول الاعتقال، وفداحة الآلام تطوّق بنيه بعد السعد، ويعانون المهانة بعد العز، زهدًا جليلاً، وتأسيًّا نبيلاً :

أرى الـدنيـا الدنيّـة لا تواتـي فأجمـل في التصرُّف والـطِّلاب
ولا يغـررك منـها حُسـن بُـرْدٍ لـه علمان من ذهـب الذهـاب
فـأولـهـا رجـاءٌ مـن سـرابٍ وآخـرهـا رداءٌ مـن تـراب

أجمل المستشرق الهولندى رينهارت **دوزي** رأيه في **المعتمد** على النحو التالي : "لم يكن **المعتمد** حاكمًا عظيما بحال، فقد تولى مقاليد شعب أفسد الترف طبعه، فلم يصرف شيئًا من العناية إلى أمور رعيته، وترامى على ملذات نفسه، ومن ثم كان عبء الحكم عليه ثقيلاً، كان بطبعه ميالاً إلى الراحة، تشغله تلك الأشياء الخارجية التي تشغل الفنانين وتألف منها مسرّاتهم وشقاواتهم، فكان ذلك مما حال بينه وبين القيام بأعباء الحكم على النحو المطلوب. لكن أحدًا من الناس لم تنطو نفسه على قدر من الحساسية والفيض الشاعري الفائق كالذي ضمته نفس المعتمد، وأتفه الأشياء في حياته، وكل متعه وأحزانه كانت تأخذ على الفور شكلاً شعريًا، ويمكن كتابة تاريخ حياته، أو على الأقل حياته الشعورية، اعتمادًا على شعره وحده، على بوحات قلبه، إنها طافحة بالحزن والابتهاج الذي يأتى ويذهب كل يوم مع إشراقة الشمس أو تلبد الغيوم. ثم إن القدر أراد له أن يكون آخر أمير أندلسي أصيل، يحمل في جلال عَلَمَ ثقافة فكرية وقومية، قُدر لها أن تنطوى ويذهب أمرها تحت ظل المرابطين الذين فتحوا البلاد. لقد أحاط به عطف خاص لأنه كان أصغر وآخر فرد من أفراد تلك الأسرة الكثيرة العدد، أسرة الأمراء الشعراء الذين حكموا الأندلس. لقد أسف عليه الناس أكثر مما أسفوا على أي شخص آخر دون استثناء، تمامًا كما يأسف الإنسان على آخر وردة في الموسم، وآخر يوم جميل في الخريف، وآخر شعاع من أشعة الشمس الغاربة".

وتمثل **غرناطة** حالة خاصة، كان أميرها بربريًا بخيلاً، آثر أن يكون وزيره الأول يهوديًا: صموئيل (أو شموئيل أو إسماعيل) **بن النغرلة**؛ فدفع هذا بأبناء جلدته إلى المناصب العليا في الأمن والاقتصاد، فكان منهم جباة الخراج، وصاحب الشرطة، وكان الرجل داهية، يداهن الأمير وينافقه، ويدغدغ غرائزه، ويصانع العامة ويجاريها، فمكن لنفسه وقومه ولابنه أن يخلفه من بعده، وفي مناخ كهذا لف الجدب الحياة الأدبية نفسها، وعلى امتداد نصف قرن من الزمان، هو عمر الإمارة تقريبًا، في بلد يرتوي بالشعر ويتغذى بالغناء، ظلت غرناطة على امتداد

القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، خارج المهابط التي يتردد عليها الشعراء، ولم يحدث أبدًا أن أيًّا من كبار الشعراء خارجها فكر أن يرتحل إليها ليمدح أمراءها البربر أو وزراءها اليهود، وأما الذين فيها فكان عليهم إما أن يخضعوا أو يرحلوا.

كان **المنفتل**، أبو أحمد عبد العزيز رأس الاتجاه الأول فوقف شعره على مدح **صمويل** وابنه من بعده، وغالى في مديحه فارتفع بهما إلى مرتبة الأنبياء، وجعلهما أكرم الناس شرقًا وغربًا، وفضل بهما موسى نفسه :

ومن يكُ موسى منهمُ ثم صِنْوه ... فقل فيهمُ ما شئت لم تبلغ العُشرا
فكم لهم في الأرض من آية تُرى ... وكم لهم في الناس من نعمةٍ تترى
فضلت كرامَ الناسِ شرقا ومغربا ... كما فضل العقيانُ بالخطر القطرا
وقد فزتُ بالدنيا ونلتُ بك المنى ... وأطمعُ أن ألقى بك الفوزَ في الأُخرى
أدينُ بدين السبتِ جهرًا لديكم ... وإن كنتُ في قومي أدينُ به سرا
وقد كان موسى خائفًا مترقبا ... فقيرًا وأمنتَ المخافة والفقرا

والقليل من الشعر الذي أورده له **ابن بسام** في كتابه "الذخيرة" في غير مدح صموئيل وابنه يشي بشاعرية جيدة مقتدرة متفننة، ولكن المؤرخين عقابًا له، واستصغارًا لشأنه أهملوا الإشارة إليه إلا عرضًا، واكتفوا من شعره بالقليل، يقول **ابن بسام** معلقًا على بعض شعره : "وهذا القصيد اندرج له من الغلو فيه، ما لا أثبته ولا أرويه، وأبعد الله المنفتل فيما نظم فيه وفصّل، وقبّحه وقبّح ما أمّل".

وكان **السميسر**، خلف بن فرج الألبيرى يمثل الاتجاه الثاني خير تمثيل، والحق أن هذا الشاعر كان باقعة عصره، وأعجوبة دهره، وله من زمنه موقف رافض، فقد شهد زهوة الباطل، واختلال القيم، وغلبة الصغار، وعجزه عن التغيير، فأدار ظهره لكل ما حوله وجاء شعره رافضًا بكل ما تعنيه الكلمة في عصرنا الحديث، سخر مما يعظم الناس، وهجا من يمدحون، واحتقر ما يعظمون، وجاء هجوه لهم مفحشًا، ونقده قاسيًا، فأهمله المؤرخون المعاصرون له خوفًا ممن هجاهم، يقول **ابن بسام** مشيرًا إلى مذهبه: "وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره من القدح في أهل عصره، صنت الكتاب عن ذكره".

كـــان داعية ثـــورة في زمن استطاب الناس فيه المتع واللـــذاذة، وخلدوا إلى الدعة والراحة، وآثـــروا الأمن والسلامة، غيره يمدح الملوك وهو يصرخ بأعلى صوته :

نـــادِ الملـــوك وقـــل لـــهـــم : مـــــاذا الـــذي أحـــدثـــتـــمُ
أســـلـــمـــتـــم الإســـلام فـــي أسْـــــرِ الـــعـــــدا وقـــعـــدتـــمُ
وجـــــبَ الـــقـــيـــامُ عـلـيـكـــمْ إذ بـــالـــنـــصـــارى قـــمـــتـــمُ
لا تـــنـــكـــروا شـــقَ الـــعـــصـــا فـــعـــصـــا الـــنـبـــي شـــقـقـــتـــمُ

ثـــم استجـــمع أمره، وقـــال كلمته في حكام غرناطة، ساخرة قاسية، بسيطة موجعة :

رأيت آدمَ في نومي فقلـــتُ له : أبا البرية إن الناس قد حكـــمـــوا
أن البرابـــر نســـلٌ منك قال : إذًا حـــوّاءُ طالقـــةٌ إن صح ما زعموا

قالها وخلّف غرناطة وراءه، مهاجرًا إلى حيث لا يرى وزيرًا يهوديًّا يتحكم في مصائر قومه!

الشاعر الوحيد ذو الأهمية في غرناطة هذا العصرَ لم يكن بالطبع شاعرًا يتغنى بالحب أو الشراب، أو يرنو إلى الترف المصقول المصفى، كما عند بقية ملوك الطوائف، ولا شاعر بلاط مدّاحًا. وإنما كان صدى لواقع المدينة، كان شاعر المعارضة والزهد والسياسة، ومناهضة نفوذ اليهود، هو: **أبو إسحاق الإلبيري**، وقد صمت عنه المؤرخون عامة لسبب غير واضح، لا نعرف تاريخ مولده، وتوفي قريبًا من نهاية عام ٤٥٩هـ - ١٠٦٧م، وعمل كاتبًا لقاضي غرناطة، وتعني الوظيفة ما هو أكثر من تسجيل أحكام القاضي، فهو - إذا شئت - شريكه في الرأي، وأمينه ومساعده ونائبه إذا تخلف أو غاب، ويقوم في الوقت نفسه بالتدريس لطلاب الدراسات العليا في المسجد الجامع، وكان حريصًا على هذا؛ لأنه المجال الوحيد الذي يستـــطيع فيه أن يلتقي بشباب غرناطـــة، وأن يتحدث إليهم عن المظالم

حولهم، وعن طغيان اليهود في كل مجال، وكان بحكم مهنته فقيهًا، وانتمائه إلى أسرة عربية عريقة غير راض عن سيطرتهم على الحياة السياسية والاقتصادية، وهي مشاعر اجتاحت أعماقه شابًّا على التأكيد، أخفاها زمنًا دون أن يتوقف عن إثارة الذين حوله، والإعداد للثورة، وتغيير الأوضاع الجائرة في الإمارة، فنفاه الأمير بضغط من وزيره اليهودي إلى خارج غرناطة في زاوية تسمى "رابطة العقاب".

وتوالت الأحداث سريعًا، وفارق أبو إسحاق منفاه عائدًا إلى العاصمة، فوجدها في قمة الغليان والاضطراب، والعرب والبربر في استياء بالغ من الوزير اليهودي، وينسبون إليه أقسى النوايا رعبًا، وهو بحماقاته يدفعهم إلى المزيد من الكراهية والتطرف، وكان وقود الثورة معدًّا، وفي حاجة إلى من يشعل الثقاب فحسب، وأشعلها **أبو إسحاق** بقصيدة عظيمة دخلت، ودخل معها التاريخ من أوسع الأبواب!

لا يعرف العالم العربي **أبا إسحاق** إلا قليلاً، والقلة التي تعرفه تراه شاعرًا زاهدًا فحسب، ولكن شهرته العالمية تعود في المقام الأول إلى قصيدته التي توجه بها إلى بربر صنهاجة يحرضهم على يوسف بن صموئيل وزير أمير غرناطة، والقصيدة، فيما أرى، تستحق ما تمتعت به من شهرة؛ إذ لا نعرف إلا في القليل النادر أن أبياتًا من الشعر لعبت دورًا سياسيًّا مباشرًا في التاريخ السياسي لأمة من الأمم، فكهربت العزائم، ودفعت بها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق، وشحذ السيوف إلى القتل، كالدور الذي لعبته هذه القصيدة.

توجه **أبو إسحاق** بقصيدته، وجاءت في ٦٨ بيتًا، إلى كل القوى التي يتكون منها المجتمع الغرناطي : بربر صنهاجة، والأمير، وهو منهم ورئيسهم فبيلةً في الوقت نفسه، وجنود الجيش وهم من بربر إفريقية (تونس الآن)، ثم عامة المسلمين من بقية الأجناس الأخرى، وآثر في البدء أن يتحدث إلى القبيلة؛ لأن البربر حانقون على اليهود فعلاً، وبقليل من المديح لهم، وبسط ما كان عليه اليهود، وما انتهى إليه حالهم، سوف يصبحون من الثائرين.

وهو يتحدث إليهم من القلب في لغة متواضعة، ونغم هادئ، وإرادة مخلصة، ويشهدهم جميعًا على أن سيدهم، أمير غرناطة، ارتكب خطأ فادحًا حين تخير كاتبه (= وزيرًا) كافرًا، وبين المسلمين أكفاء لهذا المنصب، فأدى موقفه هذا إلى اعتزاز اليهود وزهوهم، ومعه حققوا كل مآربهم، وأكثر مما أملوا، ولم يكن ذلك لمهارة فيهم، وإنما لغفلة في المسلمين :

ألا قل لصنهاجة أجمعين ... بدور الندىّ وأسْدِ العرينْ
لقد زلّ سيدكم زلّةً ... تقرّ بها أعين الشامتينْ
تخيّر كاتبه كافرًا ... ولو شاء كان من المسلمين
فعزّ اليهود به وانتخوا ... وتاهوا، وكانوا من الأرزلين

ويعيب على الأمير، **باديس**، في رفق كيف خفي عليه حال اليهود، وقد أصبحوا في غرناطة أعزاء أقوياء وهم في غيرها من البلاد ضعفاء مهانين، ويصف ما وجده في غرناطة حين عاد إليها : قسّم اليهود المناصب بينهم، ويتولون جباية الضرائب، يلبسون أفخر الثياب، وعندهم، وهم الخونة، تنتهي أسرار الدولة، إذا سرق غيرهم القليل عوقب، وهم يسرقون الأموال الطائلة فيزدادون من الأمير قربًا، ومن السلطة تمكنًا :

وإني احتللت بغرناطة ... فكنتُ أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالهم ... فمنهم بكل مكانٍ لعين
وهم يقبضون جباياتها ... وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا ... وأنتم لأوضعها لابسون
وهم أمناكم على سركم ... وكيف يكون خئونٌ أمين
ويأكل غيرهم درهما ... فَيُقصى ويُدنَوْن إذ يأكلون

حتى إذا انتهى من بسط قضيته كاملة ختم قصيدته واثقا من النصر، متفائلا بالفوز لأن الله مع قومه :

وراقب إلاهك في حزبه ... فحزب الإله هم الغالبون

اعتمد **أبو إسحاق** في قصيدته على أدوات كثيرة كي يحقق الغاية منها، كان يعرف أن الجنود، وهم الذين اصطفاهم أصلاً بالحديث، من بربر صنهاجة ولعل بعضهم جاء إلى غرناطة من قريب، حظهم من العربية متواضع، وليسوا مهيئين للأشعار الرقيقة، كل ما يستطيعونه أن يدركوا الغاية منها فحسب، وكل نصيبهم من المعجم اللغوي العربي الألفاظ ذات الدلالة الدينية، ومع ذلك فليس هذا مهمًّا، سوف يبتعد الشاعر في هذه المناسبة عن الكلمات الغامضة، والبحور المعقدة، وعن الأقوال والأوصاف المكرورة في مصنع الشعراء، وأن يأخذ من العربية أشد الكلمات قــوة وصلابة، الألفاظ التي يفهــمها كل مسلم قادر على قراءة القرآن، وأن يجمعها في تراكــيب سهلة غير معقدة، وأن يرمى بها في مقاطع عادية مؤثرة، تأخذ شكل الخطوة العســكرية، وأن تكون في بحر المتــقارب، فهو الأقرب إلى هذه الخطى.

رفع **أبو إسحاق** القصيدة إلى الأمير فلم يرتح لها، إذ كانت ثقته في وزيره اليهودي بلا حدود، ولكنها أثارت عاصفة من الحماسة بين الجماهير، فأقسموا على القضاء على الوزير، وحملت الرياح أبيات **أبى إسحاق** إلى كل أركان المدينة، وأقبل الناس عليها ينسخونها وينشدونها ويترنمون بها، ويتحينون الفرصة ليجعلوا من أفكارها واقعًا.

وحانت الفرصة!

ليلة السبت لعشر خلون من صفر ٤٥٩هـ - ٣٠ من ديسمبر ١٠٦٦م، تفجرت الثورة على إيقاع القصيدة، وفيها أعدم الوزير اليهودي، وصُلب على باب المدينة، وأعملت الجماهير المطحونة المكبوتة السيف في رقاب اليهود، ونهبوا متاجرهم، وأشعلوا النار في بيوتهم، وقُتل في هذا اليوم ما يقرب من أربعة آلاف يهودي، والذين نجوا باعوا أملاكهم ورحلوا، فتحررت غرناطة من اليهود إلى الأبد، ولم تقم لهم فيها قائمة بعدها، حتى يومنا هذا!

يقول المستشرق الإسباني الكبير **أميليو غرسيه غومث**، معلقًا على هذه القصيدة : "لعل الشعر الأندلسي لم يعرف أبدًا البساطة عارية كما عرفها في هذه القصيدة، وفي الوقت نفسه لم ير قصيدة مثلها، يلفها هذا الإعصار من المشاعر: لقد اجتاحت أنغامها حية متوهجة أعماق المدينة، مع زفير النيران وحشرجة الموتى".

أما في **ألمرية** فقد اشتهر **المعتصم بن صمادح**، أمير من أسرة شاعرة، واتسع بلاطهم للعديد من الأدباء والعلماء، اشتهر من بينهم **ابن الحداد**، أبو عبد الله بن محمد (ت ٤٨٠هـ - ١٠٨٧م)، وذاعت بين الناس قصائده الجميلة يتغزل فيها بفتاة نصرانية يلاحقها حتى في الكنائس، وصور لنا بدقة ما يجرى خلالها، وخص فتاته بالكثير من قصائده وكان يدعوها "نويرة" تصغير نورة، ومن شعره فيها :

ورأت جفوني من نويرة كاسمها ... نارًا تُضل وكلَّ نارٍ تُرشدُ
والماءُ أنتِ، وما يصحَ لقابضٍ ... والنارُ أنتِ، وفي الحشا تتوقَّدُ

وفي أبيات أخرى يتبعها إلى الكنيسة :

عَساكَ بحق عيساك مريحةَ قلبيَ الشاكي
فإن الحسن قد ولاَ ... كِ إحيائي وإهلاكي
وأولعني بصلبانٍ ورهبانٍ ونُسّاك
ولم آتِ الكنائس عن ... هوى فيهن لولاك
وها أنا منك في بلوى ... ولا فرجٌ لبلواك

* * * * *

نويرة إن قَلَيْت فإنني ... أهواك أهواك!
وعيناك الشهيدانِ ... بأني بعضُ قتلاك

أما في بَطَلْيَوْس فاشتهر **ابن عبدون** في بلاط **المتوكل بن الأفطس**، وكان من أكبر شخصيات هذه الدولة، وأصله من يابرة **Iavora** (في البرتغال الآن) وكان ذا فهم دقيق، ومزاج مرهف، ومواهب ممتازة، وذاكرة حافظة، وكان كتاب الأغاني أيسر محفوظه، وعندما سقطت دولة بني الأفطس في يد المرابطين بكاها بقصيدة طويلة من درر الشعر العربي، ومطلعها:

الدهر يفــجع بعد العــين بالأثــر فما البكاءُ على الأشباح والصور

وهي قصيدة طويلة، حافلة بالإشارات التاريخية، تنم عن علم غزير وإطلاع واسع، ودفعت غزارة مادتها بالكثيرين إلى شرحها والتعليق عليها، وخلف أشعارًا أخرى، وعددًا من الرسائل الفنية التي كان يكتبها على لسان أمراء بني الأفطس والمرابطين من بعدهم.

حول **المعتمد** خلال لحظاته السعيدة، وبعض أيامه التعيسة أيضًا، التقت كوكبة من الشعراء، منهم: **ابن عمار**، وكان شخصية قوية، وحياته سلسلة من المغامرات المحزنة، طموح في السياسة، أسلوبي النزعة في الشعر، وانتهت حياته قتيلاً بيد أميره **وابن اللبانة**، وكان روحًا عذبة، رقيقة، واشتهر بوفائه للمعتمد بعد نكبته، وترك لنا أعظم القصائد إثارة عن سقوط دولة بنى عباد، ووصف رحلة **المعتمد** المبكية إلى المغرب في نغم شاج صادق حزين.

وعاش في هذا العصر **ابن زيدون**، وهو أعظم شاعر كلاسي جديد في الأندلس، وكان مولده في قرطبة، وبكي شابًا على أطلالها ومواضع أنسها التي عبثت بها أيدي الزمان. ثم انتجع إشبيليه وعاش في رعاية بنى عباد، وتغنى في شعره بحب أميرة شاعرة أيضًا : **ولادة بنت المستكفى**، هجرته آخر الأمر، فمضى يشكو آلام الهجران ومرارة الحرمان في شعر لا نزال حتى يومنا نجد فيه متاعًا حقيقيًا، خاصة نونيته الشهيرة، فهي تحمل الكثير من حرارة الصدق وعمق التجربة، ومعاناة التوتر، ومثلها قليل في الأشعار التي كانت تهتم بالأسلوب أولاً.

وخلال فترة الانتقال من العصر الأموي إلى عصر الطوائف نلتقي بشخصيتين من أعظم أعلام الأندلس : **ابن شُهيد، وابن حزم**، وكانا صديقين ودودين، وقُدر لكليهما أن يرى بعينيه سقوط الخلافة في قرطبة، وأن يشهد الفترة المحزنة التي صاحبت هذا السقوط، وأن يبكى في شعره ونثره ما أصاب العاصمة الجليلة من خراب ودمار، وعرف كل منهما كيف يعرض علينا أصالة النفس الأموية ونبلها خلال أخطر الأزمات التي مرت بها إسبانيا الإسلامية في تاريخها.

كان **ابن شهيد** شاعرًا وناقدًا لم يصبح الأدب حرفة في يده، وما كانت به حاجة إلى هذا، فقد نشأ في بيت عريق، وتتراءى في شعره لمحات ذات مذاق حديث، وتعرض للأذى من ملوك الطوائف، ثم ألم به داء عضال عانى حرارته في صبر المؤمن ورضى المتصوف، ولقي الله في ٤٢٧هـ - ١٠٣٥م.

وجاءت حياة **ابن حزم** تعبيرًا عن حياة الأندلس على أيامه، شابا أنيقًا من المجتمع الأموي الرفيع أخذ بحظ من السياسة ولما يزل شابًا، وعانى أوصاب النفي، وانتهى به المطاف مفكرًا عضب اللسان، وجوّاب آفاق ينازل العلماء والفقهاء، وتعاطى الشعر شابًا، وضمن كثيرًا منه كتابه "طوق الحمامة"، وهو دراسة رائعة عن الحب والمحبين، طاقة زهر أرجة من الحكايات والأقاصيص والأحداث ومقطعات الشعر، وقصائد في الغزل، وتحليل عاطفة الحب خلقيًا ونفسيًا وإنسانيًا، وسط مؤلفاته الأخرى الجادة والصارمة في مجال العقائد والتاريخ والأديان والجدل، وفي الطوق يمزج بين النثر الراقي، في سجع عفوي، وأخبار تتصل بحياته، وتتناثر أشعاره عبر صفحات الكتاب كله، تنم عن عاطفة حارة مشبوبة، وينهج فيه نهجًا إنسانيًا معتدلاً، ليس بالعذري الحالم، ولا الشهواني الفاجر، وهو كتاب نال حظوة واسعة، خاصة في العالم الأوربي، وتُرجم إلى معظم لغاته.

تلك إشارات خاطفة، موجزة، لحياة الشعر في ممالك الطوائف، ومن ذا الذي يستطيع أن يحصي مئات الشعراء الآخرين، يتدرجون في مثل طبقة من أشرنا إليهم، أو إلى طبقات أخرى دونهم، نلتقى بهم في كتب "نفح الطيب"، و "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، و "قلائد العقيان"، و "المطمح"، و "الإحاطة" وغيرها. وإن الأذن لتسمع في هذا الحشد الحافل من المنشدين أصواتًا من كل لون : أصوات الفقهاء العنيفة تثير في الناس الحمية والدعوة إلى الجهاد، وأصوات السخرية اللاذعة من الناقمين على كل شيء، ودعوات الإخوان إلى انتهاب المسرات وقد غفلت عنهم صروف الزمان، والخمريات والزهريات والنساء والأعياد والمدائح الزائفة، ونداءات القتال ونفثات المكلومين، وآهات الغزليين، وضحكات السعداء، إن شعراء هذا العصر يبدعون وكأن حياتهم لن تنتهى يومًا، أو أن النهاية سوف تفاجئهم غدًا، فهم يتزودون للرحلة، كل بحسب ما يرى.

كان عالم القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، في الأندلس عجيبًا، صاخبًا سريع الحركة تنتقل الغاسلة فيه من ضفة النهر إلى سدة العرش بشطر بيت من الشعر، ويُنزع الملك من فوق سدة العرش إلى السجن أو القبر، طابعه الغالب هو الانهيار، وعبر عن ذلك **المعتصم بن صمادح** (ت ٤٨٤هـ - ١٠٩١م) أصدق تعبير، فقد طوّق المرابطون قصره، واقتربوا من حجرات نومه، وهو في سريره يحتضر، فقال : "أعوذ بالله، نُغَّص علينا في كل شيء، حتى في الموت"!

* * * * *

في هذا العصر نلتقي بالموشحات، أول ثورة حقيقية على الشعر العربي في شكله وبنائه ولغته جاءت في عروضه أحيانًا وخرجت عليها أحيانًا أخرى، وتنوعت قوافيها في بناء دقيق محكم، ملزم دائمًا، وما لبثت الموشحات أن أصبحت نوعًا أدبيًا جديـــدًا مستقلاً، لا صلة له بالشعر، واضح المعالم، محدّد القسمات، والمبدع إما شاعر أو وشاح، وقليلاً ما يجمع بينهما. إن استقلالية الأنواع، واحترام دلالة المصطلحات تشي بأننا إزاء حضارة جادة مصقولة، ترفض العبث والتلاعب، وأن يدعى المرء لنفسه ما لا يجيد.

ابتدع الموشح شاعر أندلسي ضرير : **مقدم بن معافى القبري**، أواخر القرن الثالث الهجري، عاش في قرطبة، وتوفى مطلع القرن الرابع الهجري، ومن الصعب فيما يبدو لي الجزم بأن مثل هذا العمل الذي أتى على تقاليد الشعر العربي يمكن أن يحدث فجأة، وعلى يد شاعر واحد، وقلة من المؤرخين تعزو ابتداعه إلى **ابن عبد ربه** أو إلى **يوسف الرمادي**، وأحسب أن هذين سارا على خطى **مقدم** فحسب.

كان وراء هذه الثورة عوامل اجتماعية وأدبية متعددة مهدت له، وأعانت مقدمًا على ابتكاره، منها : بُعد الأندلس عن المشرق، مركز العرب والعربية، وأن أصول أهله، في جملتهم، غير عربية، وشيوع الموسيقى بين مختلف طبقاته على نحو لم تعرفه الأندلس من قبل بفضل **زرياب**، الحسن بن نافع، والموسيقى في تطورها تتطلب شعرًا له خصائص معينة؛ لأن تمكن العامة من العربية مُتدن،

وقدرتهم على تذوق الفصحى في أنقى درجاتها، وأصعب تراكيبها متواضع، فكانت الحاجة ملحة إلى كلام بسيط تصاغ فيه الأغنية، ويتفاوت الإيقاع، ودعّم هذه التطور أن تمسكهم بالتقاليد العربية المشرقية كان واهنًا، فتسامحوا مع الخروج على قواعد الشعر، تسامحٌ لم يقبله النقاد والعلماء والمؤرخون وصفوة المجتمع فقاوموه في البدء، وكانت هذه المقاومة وراء ضياع كل موشحات القرن الرابع الهجري، فلم يصلنا منها شيء، وربما ساعد على هذا أيضًا أن هذه الموشحات لم تبلغ حد النضج والجودة، التي تجعل منها قيمة فنية تفرض نفسها على الحياة الأدبية فضاعت كلها بلا استثناء. إن أول موشحة وصلتنا تعود إلى **عبادة القزاز** المتوفى في مالقة عام ١٠٢٨ م. وبعده توالى الوشاحون المجيدون على امتداد عصر الطوائف وما تلاه، وفيه بلغ فن التوشيح قمته.

انتشر فن الموشح عبر البلاد العربية كلها. وأورد لنا **ابن حزم** (ت ١٠٦٣م) بعد قرن تقريبًا من وفاة **مقدم**، وأقل من نصف قرن من وفاة **عبادة القزاز**، في رسالته عن فضائل أهل الأندلس نصًّا للمؤرخ **ابن غالب** يعدد فيه فضائل قومه : إنهم ابتدعوا الموشحات، وقد أعجب بها المشرقيون كثيرًا وأولعوا بتقليدها، أي أن الموشحات بلغت الشرق قبل أن تبلغها المؤلفات الأندلسية الأخرى، فقهية أو صوفية أو أدبية أو طبية.

وقريبا من عام ١٢٠٠ م قام **ابن سناء الملك** المصري بتأليف كتابه "دار الطراز" نظر فيه لهذا الفن الجميل، وضمنه عددًا كبيرًا من موشحاته هو، وموشحات الآخرين، لكي يفيد منها المعجبون بهذا الفن الجميل، وانتقل بناؤه إلى كل الآداب الإسلامية : الفارسية والتركية والأوردية والألبانية والسواحلية، وكان الصوفية وراء انتشاره في العالم الإسلامي، وبدءًا من القرن الثاني عشر الميلادي سوف تترك الموشحات تأثيرًا في الشعر الأوربي الغنائي في مقاطعة بروفانس، جنوبي فرنسا، أولاً، ومنها إلى الأدب الإيطالي والإسباني والبرتغالي والقطلوني، ونجد لها صدى خافتًا في الشعر الألماني والإنجليزي.

كانت الموشحات في البدء تدور حول موضوعات تصلح للغناء، وتجذب انتباه السامعين، فتدور – كما يحدث الآن في أغانينا – حول المرأة والحب والشراب والطبيعة وغيرها من مواطن الجمال والإمتاع، ولكن انتشار هذه الفن، وإقبال الناس عليه، دفع به إلى المديح دفعًا، استغله الوشاحون وفتن به الممدحون، مع أن الوشّاح لم يكن يهتم بعويص المعاني أو رائعها أو المبتكر منها، وإنما كان يبحث عن العادي فيها، المتداول والمعروف؛ لأن الموشحات لم تخلق لإرضاء الفكر وتغذية الذهن، وإنما لإثارة الخيال والعاطفة، وإبهاج النفس والأذن، فإذا أحسن غناؤها بلغت الغاية من التوفيق والجمال، وجاءت لغتها أرق وألين من لغة الشعر، فالغناء يتطلب الألفاظ السمحة والصور السهلة، والأساليب اللطيفة، وبداهة جرهم هذا إلى الضعف والركاكة لطواعيتها، وارتباطها بمبتذلات العامة، وزادها فسادًا ما اشترطوا في خرجاتها أن تكون عامية اللفظ، فاجترأ الوشاحون على التساهل اللغوى في غيرها.

* * * * *

بعد انتصار الزلاقة (٤٧٩هـ – ١٠٨٦م) لم يعد **يوسف بن تاشفين** إلى المغرب، وفضّل لأسباب ليس هنا مكان بسطها أن يزيح أمراء الطوائف جميعًا عن عروشهم؛ لأنهم فيما رأى ورأت شعوبهم أيضًا، ليسوا أهلاً للمسئولية، وبذلك أصبح الأندلس ولايـــة مرابطية قاعدتها إشبيلية، وفي هـــذه المرحلة بـــدأ الشعر وكأنه يلفظ آخر أنفاسه، وانطوى على نفسه إلى حين، وانصرف نفر من مؤرخي الأدب إلى تخليد كنوز الأندلس الشعرية وصيانتها من الضياع، فألف **ابن بسام** "الذخيرة"، و**ابن خاقان** "قلائد العقيان"، بيد أننا لا يصح أن نبالغ في اتهام هذا العصر، كما فعل المستشرق الهولندي **دوزي**، مدفوعًا بكراهيته رجال الدين أيًّا كانوا، ولا مع بقية المستشرقين الأوربيين؛ لأنهم لم يغفروا للمرابطين انتصارهم في معركة الزلاّقة، وأنهم مدوا في عمر الإسلام الأندلسي ثلاثة قرون من الزمان.

وكل ما هنالك أن الشعراء تدافعوا – كما هي عادتهم – حول السيد الجديد، وكان شديد التديّن، يكره النفاق، ويتقي الله في أموال المسلمين، إلى جانب أن حظه من تذوّق روائع الشعر العربي الكلاسي محدود، وفهمه لها متواضع، ولكن خلفاءه وعماله لم يتركوا الشعلة تنطفئ، وحفلت دواوين إنشائهم بالناشرين والكتاب والشعراء ممن تربوا في عصر الطوائف، إلى جانب أن عصر المرابطين في الأندلس كان قصيرًا، قريبًا من نصف قرن أو نحوه، والمشرق في انهيار متصل، فتوقف تأثيره على الأندلس إلا قليلاً.

ويبدو أن المسافة بين اللغة المكتوبة واللغة المتكلمة قد اتسعت بقوة، فهبط الذوق العام، ومال الناس إلى كل ما هو شعبي وسوقي خال من الحشمة والوقار، ومن ثم عرف هذا العصر الهجاء اللاذع، والسخرية العنيفة، والمجّان من الشعراء، وكبار الزجّالين أيضًا، وبدأ الزجل، وهو مكتوب في العامية الأندلسية يصبح نوعًا أدبيًا دون أن يُدعى شعرًا أو توشيحًا، أو أن القائمين به وشاحين أو شعراء. وفي الطرف المقابل لهذا الاتجاه نلتقي بأعظم شاعرين تغنيا بإبداعهما في هذا العصر **ابن خفاجة**، وابن أخته **ابن الزقّاق**، وكلاهما من جزيرة شقر في بلنسية، وكانت أسبابهما موصولة بالجيل الذي سبقهما، وقد طار صيت **ابن خفاجة** بما أنشأ من الشعر في وصف الحدائق والرياض حتى لُقِّب بالجنّان، وتفيض روضياته عذوبة وجمالاً، وظلت طريقته، وحملت اسمه، محتذاة حتى أواخر أيام إسبانيا الإسلامية.

وكان **ابن الزقّاق** وصّاف طبيعة أيضًا، ويرجع تميزه إلى براعته في تجديد الصورة الشعرية، وصبها في قوالب جديدة بعد أن ملّ الناس التشبيهات القديمة لكثرة استعمالها، بأن أضفى عليها طابعًا دراميًا. وإليك شاهدًا منها :

الشعراء العرب يشبهون الثغر الجميل بزهرة الأقحوان، ثم استُهلِكتْ هذه الصورة، فلجأوا إلى التشبيه المعكوس، فشبهوا زهرة الأقحوان بالثغر الجميل، ومع الزمن وكثرة الاستعمال، ملّ الناس هذا النمط، فجاء **ابن الزقّاق** وأضفى عليه طابعًا دراميًا مسرحيًا، فيه حوار وصراع : الندامى يشربون ضحى في روض

بين الشقائق والريحان، ولم يكن الأقــاح هناك فسألوا عنه، فأجابهم الروض : أودعته ثغر الساقي، ولكن الساقي أنكر، فلما ابتسم بدت أسنانه، فكانت الأقحوان الذي افتقده الندامى :

وأغيــد طــاف بالكئــوس ضحى فحــثّها والصبــاحُ قد وضَحــا
والــروض يُبــدي لنا شقــائقَــه وآســه العنــبري قد نَــفَحــا
قلنا : وأيــن الأُقــاح قــال لنا : أودعتــه ثغــر من سقى القدحــا
فــظل ساقــي الــمدام يجــحد ما قــال فلــمّــا تبــسّم افتــضحــا

وفي هذا العصر ذاعت رائية **ابن عبدون** الرائعة في رثاء بني الأفطس، أمراء بطليوس وأزاحهم المرابطون، وألمحنا إليها من قبل، وتشبث نفر آخر من الشعراء بأذيال الزمن المولِّي يحاولون أن يمدوا أجله على غير جدوى، فهم يتنقلون بين المقاطعات يحاولون أن يتكسّبوا بشعرهم، وأن يسترجعوا أيام الصلات التي ولت مع الأمس الدابر فلم يغن ذلك عنهم شيئًا، فعبروا عن خيبة أملهم في أبيات مجهدة، تنم عن حزن عميق، ومن بين هؤلاء : الأعمى التطيلي، وابن بَقيّ، وخلّف لنا هذا طائفة من أبدع أبيات الغزل، وآخرون.

* * * * *

مر الأندلس لفترة قصيرة بعد سقوط المرابطين بعصر طوائف آخر، ثم جاء **الموحدون**، وسادوا الأندلس (٥٤١ - ٦٦٨ هـ = ١١٤٦ - ١٢٦٩م) بعد أن قامت دولتهم في المغرب على أنقاض المرابطين، وتمتع الأندلس في عصرهم بالأمان والهدوء، وفي ظل نظام جديد قام على رعايته خلفاء الموحدين في حكمة وتعقّل بلغت العلوم والآداب ذروتها. إنه عصر ابن رشد وابن طفيل وابن باجة، وابن زهر وابن البيطار، وحفلت دواوين الموحدين في الأندلس والمغرب بالموهوبين الأندلسيين شعراء وكتابًا أمثال : الرصافي وصفوان بن أدريس، وتألق في سمــاء غرنــاطة كوكبة من الشاعــرات، منهن حفصة الركونية التي أعادت إلى الأذهان ذكــرى الرميكية والمعــتمد، وولادة وابن زيدون، بما كان بينها وبين

أبي جعفر بن سعيد من هوى موصول، وحازت إشبيلية قصب السبق بين مدائن الأندلس في كثرة عدد الشعراء على رأسهم ابن سهل الإشبيلي (ت ١٢٥١م)، آخر شاعر أندلسي وصف نهر الوادي الكبير، وشهر برقة شعره؛ لأنه، فيما يقول النقاد، كان يجمع بين ذل العشق وذل اليهودية، ولكنه أسلم، وأدرك شهرة واسعة على امتداد العالم العربي.

ثم تغشى الأندلس في أواخر أيامه موجة من التشاؤم فبدأ أعلامه يغادرونه إلى غير رجعة، حاملين زادًا حافلاً من المعارف ينشرونها في البلاد التي يحلّونها، وتميز من بينهم الصوفي الشهير **ابن عربي**، **والششترى**. وكلاهما شاعر مجيد، ووشاح رقيق، ونقلا إلى المشرق ما كان يفيض به قلباهما من حرارة الشوق الإلهي، وحيرة الصوفية وأحلامها الشاطحة، وسوف يقضيان أيامهما في مكاشفة الدراويش، ومقاسمتهم العيش، وقد سبق **ابن عربي دانتي** شاعر إيطاليا الكبير في أحلامه وتخيلاته ورحلته إلى عالم الآخرة. واستقر بعضهم في تونس عند الحفصيين، كحازم القرطاجني، وابن الأبّار، وعلي بن سعيد المغربي، وجاء هذا إلى مصر، واستقر فيها، وكان وابن الأبّار مسك الختام لهذا العصر الحافل بالشعر والعلوم والفلسفة في تاريخ الثقافة الأندلسية.

* * * * *

وكانت مملكة **غرناطة** الفصل الأخير في تاريخ الأندلس، اندفع نصارى الشمال ومن ورائهم البابا وأوربا مجتمعة إلى الجنوب، فلاذ المسلمون برقعة مثلثة، أعلاها غرنـــاطة، وقاعدتها الجزيرة الخضراء غربًا والمرية شرقًا، وفي هذه الرقعة الضيقة تجـــمع المسلمون : مئات من علماء الشريعة والنحو واللغة والمفسرين والشعراء، يجترون ثمرات الأعصر الذاهبة، كان الأندلس يأكل آخر زاده، وفي هذا المناخ أطلعت سماء الشعر ثلاثة شعراء عظام: **أبو البقاء الرندي** ووفد إلى هذا العصر من زمن الموحدين، وطبقت شهرته الآفاق؛ لأنه بكى في نغم صادق حزين مؤثر ما تهاوى من مدن الأندلس، وسقط في أيدي النصارى في نونيته الذائعة، ومطلعها :

لكل شـــيءٍ إذا ما تـــم نُقْـــصَانُ فلا يُغَـــرَّ بطيب العيش إنســـانُ
هـــي الأمورُ كما شاهدتـــها دول من ســـره زمـــنٌ ساءتـــه أزمانُ
وهـــذه الـــدارُ لا تبـــقي على أحدٍ ولا يـــدوم عـــلى حـــالٍ لها شـــان

وقد تداولها الناس، وفرضت نفسها على سمع الزمان؛ لما تميزت به من صدق العاطفة، وعذوبة الموسيقى، وتركت أثرًا واضحًا في الشعر الذي جاء بعدها، عربيًّا وإسبانيًّا.

وثانيهما الوزير **لسان الدين بن الخطيب**، وكان كاتبًا مكثرًا، وأديبًا بليغًا، ومؤرخًا مدققًا، وشاعرًا مجيدًا، ووشّاحًا رقيقًا، وقُدِّر له أن يختم حوليات الأندلس العظيمة أقوى ختام وأعظمه في النفس وقعًا، وكان شعره ترديدًا لأصداء الماضي المولِّي، في نغم قوي نادر الرواء والجمال.

وثالثهما **ابن زَمرك**، محمد بن يوسف الشريحي، وكان تلميذًا لابن الخطيب، ولعب دورًا بـــارزًا في مصرع أستاذه المفـــجع، وقُدِّر لـــه فيـــما بعد أن يلقى نفس المصير!

كان **ابن زَمْرك** آخر وتر أندلسي رجّع أنغام **ابن خفاجة**، واستطاع في حياته أن ينشر ديوانه في آنق ثوب وأبهاه، لقد زيّنت أشعاره جدران الحمراء، ونُقشت أبياته حول الكُوى (الطاقات) وعلى أحواض النوافير، ديوان رائع لا يبلى جدة! يزيّن النافورات، ويجمل الجواسق الساجية في ظلال الأحزان!

لقد أوفى الإسلام في الأندلس على غايته إبداعًا، وصافح بهذه النهاية النهضة الأوربية، وجاءت كتابات **ابن خلدون** العظيم إرهاصًا بهذا التحول، وهو أندلسي من إشبيلية، هاجرت أسرته إلى تونس، واستقرّ هو في القاهرة، سَفَر للأندلسيين عند ملوك النصارى، وللمصريين عند تيمور لنك، وعنده يلتقي عالَمان : عالم تميل عند الشمـــس وتهبط عليه صفرة الأصيل، وآخر تشرق عليه، مؤذنة بفجر جديد!

* * * * *

نبع الشعر الأندلسي من بحر الشعر المشرقي، ومع الزمن بدأ يتميز ويأخذ ملامح خاصة، تتفق والمكان الذي ترعرع فيه، ووجدان الشعراء الذين أبدعوه.

وقد طرق الشعر الأندلسي كافة فنون الشعر، من الزهد إلى الهجاء، ونظم شعراء الأندلس قصائد الحماسة والنسيب والمديح والرثاء، وذهب وصف الطبيعة بالجانب الأكبر من إبداعهم.

فيما يتصل بالغزل يلتقي الدارس بأبيات تعكس حالة نفسية فريدة من العفة، يعسر تحديد ماهيتها، في حين كان الاتجاه الغالب على الحب ومفهومه إذ ذاك حسيًّا، مريضًا تحركه الشهوة، وتجدده الرغبة، وأثار مصدر هذا الحب العفيف جدلاً عنيفًا بين الباحثين الأوربيين، خاصة بين أسين بلاثيوس الإسباني ودوزي الهولندي وماسينيون الفرنسي، ونجد لهذا الحب صدى في شعر ابن حزم، وقصائد ابن فرج الجيّاني، وصفوان بن إدريس المرسي. وآخرين.

يقول ابن جيان في قصيدة مطلعها :

وطائعةِ الوصالِ عففتُ عنها وما الشيطانُ فيها بالمطاع

ويقول أبو بحر بن صفوان :

بتنا نشعشع والعفاف نديمنا خمرين : من غزلي، ومن كلماته

وقد درس ابن حزم الحب العفيف على نحو تفصيلي في كتابه "الطوق"، وظل العرب في المشرق في شخص ابن داود مؤلف كتاب الزهرة، وفي الأندلس في شخص من أشرنا إليهم طوال القرن الوسيط يتغنون بالحب العذري، يحللونه ويرسمون له المناهج، وانتقلت هذه الحركة من قرطبة إلى مقاطعة بروفانس (جنوبي فرنسا) لتلهم شعراءها ما سموه بالعلم البهيج **Gaya Ciencia**، وأوحت إلى جويدي جينزللي، أستاذ دانتي، أسلوبه العذب الجميل، ومع هذا عندما أخرجت مطابع فلورنسة النص الإغريقي لكلام أفلاطون عن الحب، نسى الناس فضل العرب (الكلام لغرسية غومث) وأخذوا يرمونهم بالحسية الجافية، ومضوا من ذلك الحين يصفونهم بذلك حتى الآن.

على أن الحب لم يكن بطبيعة الحال كله حبًّا عذريًّا، فنحن نلتقي بقصائد يلح فيها الشعراء على مشاهد مفصلة من الحب الحسي وصفًا متئدًا، بطريقة التصوير البطيء، وهم يرسلون هذه الأبيات عادة بعد سهر عربيد مسرف في الاستمتاع، وهو يركز على الجمال الظاهر خاصة، ونعرف من طوق الحمامة ومن شعراء آخرين، أن جانبًا من المجتمع كان يفضل الشقراوات، ويضم هذا الشعر أبياتًا تتحدث عن العواطف المنحرفة، وستأخذ هذه العادة شكلاً يومئ بأن الحضارة القرطبية بلغت قمتها، وتتهيأ للانحدار.

ولم يتردد ابن حزم في واقعية يشكر عليها أن يلمح إلى هذا التردي، وأن يدينه على نحو عنيف، ولكنه لم يحاول أن يقف عند الظاهرة دارسًا، وجاء غيره من الكتاب الأندلسيين فوقف عندها، وأمعن في التعمق فيها، ولم يخجل من تمجيدها، فكتب **النواجي** : "ترك الإعذار في وصف العذار"، وألف **المنهاجي** : "طول الاعتذار عن حب العذار"، وتتبعها آخرون أيضًا، وأرى أنها تعني دارس الحضارة ومن يتتبعون صعود الدول وأفولها، ولكنها بالنسبة لدارس الأدب قليلة الجدوى، وتبدو لنا عقيمة لا أهمية لها.

كان إعجاب الشعراء بالجمال الحسي مفرطًا، وربما كان إرثًا من القصيدة العربية القديمة، أمر مصدره، فيما أرى، على نحو ما أوردت في دراستي لامرئ القيس، إلى أن الجاهلية رغم أنها لم تعرف الفصل بين الجنسين، وكذلك الأندلس، والمجتمع فيما قبل عصور الانحدار، إلا أن الاختلاط على النحو الذي يتيح لكل منهما الفضائل النفسية للطرف الآخر، لم يكن متاحًا للجميع، ومن ثم لم يعد المحبون يستشعرون من الجمال إلا ما هو مرئي وملموس، أي الصورة المرئية التي لا تحتاج إلى تعامل، فاندفعوا في الإعجاب بالصورة الحسية اندفاعًا مفرطًا، ولم يجدوا ما يبررون به هذا الاستمرار في هذا الكلام الممل من الميول والأوصاف إلا بتنميقها، وإرسالها في أساليب وصور متنوعة مزينة بالزهور، مرصعة بالدر والياقوت، وأضفوا على الجسم الجميل ثوبًا بديعًا نسجوه من كل ما عثروا عليه في الرياض.

يصور الخيال الأندلسي المحب عليلاً ناحلاً، فيبدو لنا مطلع القصيدة، وكأنه الفصل الأول من مسرحية غنائية يشترك فيه فريق غير منظور من السائلين يستنكرون من الشاعر غرامه، فيمضي يعتذر عما هو فيه، ويبدأ كلامه : "يقول .. أو يقولون .. فقلت لهم". وهذا القالب الرمزي بدأ **بامرئ القيس** على نحو متواضع، وجوّده من بعده **عمر بن أبي ربيعة**، وشاع في الأندلس.

وكانت الخمريات، شأن الطبيعة، من أكثر المهابط وروداً عند شعراء الأندلس. وجرت العادة أن يجتمع الشَّرْب في البيوت او الرياض على ضفاف الأنهار، الوادي الكبير. وكان شاطئه عامراً بالمنازه وحانات الشراب. وأحياناً تتخذ المجالس مكانها في قوارب تتهادى على صفحة الماء، بأشرعتها البيضاء، ولم تكن هذه المجالس مجرد اجتماع للشراب، وإنما حلقات شعرية أدبية، وفيها توضع أمام الندماء مناضد صغيرة، توضع عليها أطباق حافلة بأطايب الطعام، وأمام كل ضيف طبق وفاكهة وكأس وإبريق، وفي وسط المجالس تُصف القناديل، وتلقى أشعتها على أصص النرجس، وأوراق النبات البديعة، وأكوام الفاكهة المتألقة، ويمضي الساقي بين السمّار يصب في الأكواب نبيذاً أبيض من أباريق بلورية تبدو كأنها : "جُمان ضم ذهبًا سائلاً"، أو أحمر عندما ينصب من فم الإبريق يبدو للسمّار كأنه : "عنق بطة في فمها عقيق". وكان الحبب الطافي على وجه الكؤوس يلهم الشعراء أخيلة وتشبيهات رائعة، وينقضي المجلس بين تقارض الشعر وارتجاله، ويتخلل ذلك بين الحين والحين شدو جارية مغنية، يصاحبها عزف على العود والطنبور والقيثارة، وتتوزع أحاسيس السمّار بين زهر الأحلام، وشطحات السكر، ومشاعر الهوى، ويصور لنا **ابن زهر** هذه الحال في أبيات له :

وموسّـدين على الأكف خدودهم ... قد غالهـم نومُ الصباح وغالنـي
ما زلت أسقيهم وأشربُ فضلهم ... حتى سكـرتُ، ونالني ما نالهـم
والخـمر تعلم كيـف تأخذ ثأرهـا ... إنـي أمـلـتُ إنـاءها فأمالنـي

وكان ولع الشعراء بالطبيعة عظيمًا، وهم يبدون لنا في وصفهم لها، وكأنهم يتأملون ما حولهم في فتور وتراخ وإسهاب، بيد أن هذا التباطؤ المتراخي في التعبير لم يحل دون شعرائهم وبين أن يبعثوا في صورهم حيوية وسرعة غير عاديتين، فيجمع بين الأشياء المتباعدة، كأن يشبه صغيرًا بكبير، إبرة بالشهاب أو العكس، ومجاديف القارب بأهداب العين، ولم يغادروا شيئًا لم يشبهوه بشيء، ولم يتركوا جانبًا من الطبيعة حولهم، وقعت عيونهم عليه، وكل الأشياء عندهم سواء، يستعملونها في تكوين صور نباتية ذات جمال، تذكرنا بالزخارف المتشابكة تنقش على الرخام أو الجص، إن كل ما بين أيديهم يصلح مادة للفن، وقد جمعوا إلى ما يحيط بهم في البيئة الأندلسية من سواقي وخضرة وزهر مأثورَ قراءاتهم أو ما ترسب في وجدانهم من أشعار المشارقة ما يذكرنا بأصداء الصحراء البعيدة بما فيها من آبار وجمال.

ومضى الأندلسيون في المديح على نهج من تقدمهم من الشعراء، أسرفوا وبالغوا، وجاء شعرهم في هذا الجانب – غالبًا – في أقسام ثلاثة : مقدمة غزلية، ثم رحلة الشاعر، وأخيرًا المديح نفسه، والتزم أصحاب النهج القديم المحدث هذا الأسلوب وإن كانت تغلب عليهم الإطالة في القسم الأخير على حساب القسمين الآخرين.

وكان الشـــعراء يغرقون في المديح ويسرفون فيه، حتى لتصبح قصائدهم ولا صلة لها بشخص قائلها، أو من قيلت فيه.

مثل هذه المدائح كانت ضرورة لازمة للملوك وذوي الشأن، واحتفظ الشعر السياسي عند العرب كافة بقيمة كبيرة على مر العصور؛ ولأن التصوير والتماثيل لم تكن شائعة بين المسلمـــين ولا مرغوبًا فـــيها، فقد قـــام الشعر مقام اللوحات، التي كان الملوك من غير المسلمين يؤجرون الرسّامين على رسمها. وإذا كان الأمير، أو الملك، شاعرًا قال الشعر مدحًا لنفسه وافتخارًا بها، وهي قصائد أصدق تعبيرًا وأبعد عن المبالغة والإغراق.

وعرف الأندلس الهجاء، ويشمل الذم والسخرية والتهكم، يصاغ في أبيات خفيفة طائرة، ثم أخذت أهميته تقل بتوالي الأيام، وجرت العادة بأن تُحشد في قصائده المعاني التهكمية البالغة العنف حشدًا، ثم أخذ عنفه يخف ويفتر، حتى أصبح آخر الأمر مجرد تصوير فكه لاذع، وتلاشى على أيام ملوك الطوائف لطغيانهم واستبدادهم؛ ولأنه لم يكن في يوم من الأيام ذا قيمة عالية يدركها كل الناس دائمًا، فهو وثيق الصلة بالظروف التي كان يقال فيها.

في مجال الرثاء شهر الأندلس بالمراثي السياسية التي اقتضتها طبيعة الصراع في الأندلس، ونالت هذه القصائد شهرة واسعة وألمحنا إليها من قبل، أما الرثاء العادي فلم يحدث فيه الأندلسيون جديدًا يميزه عن أندادهم في الشعر المشرقي.

ولم يظهر الأندلسيون براعة ذات بال في الشعر السياسي، أو الحماسي إذا شئت، ولم يكثروا من شعر الحكمة، وما جاء منها خالفه الكثير من التوفيق. أما في شعر الزهد والتصوف، فلهم منه ثروة واسعة، وتأرجح بين طرفين: إما براعة تحلق بهم في سماء الوجد الصوفي، وشطحات الإشراق، مستخدمين الرمز من غزل وخمر، أو ابتذال يهبط به إلى المواعظ تصور مفازع الجحيم وتذكر بغرور الدنيا، وبثواب التوبة وعظيم أجرها خاصة عندما تتقدم بالشاعر العمر، ويقف على أبواب الآخرة.

* * * * *

الأستاذ الدكتور عبد السلام المسدي : شكرًا للدكتور الطاهر أحمد مكي، ألم أقل لكم إن بحثه شيق ، كنا نود أن نواصل لكن الدكتور الطاهر – كما رأيتم – استحدث منهجا لهذا البحث، فأعاد قراءة التاريخ في خدمة النقد الأدبي، طاف بوظائف جديدة في هذه العلاقة بين التاريخ والنقد، الوظيفة اللغوية، فالثقافية، فالجمالية، فالاجتماعية، وختم – ونعم ما ختم به – بالوظيفة السياسية للشعر، وشكرًا له مرة أخرى.

الكلمة الآن، نصغي فيها إلى البحث الثالث في هذه الجلسة، السادس في ندوتنا، هذا البحث هو مسك الختام؛ لأنه سيحل بنا في القاهرة قاعة الصواريخ الشعرية، وسيكون هذا المدخل على يد الأستاذ الدكتور أحمد عبد الله التطاوى في بحثه بعنوان "القاهرة ونهضة الشعر العربي" فليتفضل.